

ما قبل المعرفة اللغوية - قراءة في الشروط والآليات -

Pre-knowledge of language -reading in terms and mechanisms-

د. اليزيد بلعمش

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة - الجزائر.

الملخص:

يعالج هذا المقال بيان أهمّ الشّروط والآليات التي تجعل الباحث على الطّريق الصّحيح في تناول المعرفة اللّغوية وتعاطيها، مبينًا إسهام كلّ واحد منها في حلقة بناء المعرفة وتحصيلها. وقد توصل الباحث إلى أنّ صحة الطّريق إلى المعرفة مرهون بأربعة أمور هي: المنهج المتبع، وأدوات تحصيل المعرفة، والمعرفة المسبقة، والأهداف المسطرة.

الكلمات المفتاحية:

المعرفة - المنهج - وسائل المعرفة - المعرفة المؤسسة - الأهداف.

Abstract :

This article discusses the most important practices and mechanisms that make the researcher on the right way to deal with and use linguistic knowledge, indicating the contribution of each of them to the cycle of knowledge building and learning. The researcher concluded that the validity of the way to knowledge depends on four things: the approach followed, the tools of knowledge acquisition, the prior knowledge, and the objectives of the ruler.

Keywords:

Knowledge - curriculum - means of knowledge - institutional knowledge - goals.

مجلة الآداب، المجلد 18، العدد 1، ديسمبر، 2018

1- مقدمة:

إنّ المعرفة - كما قال الأول- هي عبارة عن منزل حصين، لا يمكن الولوج إليه إلا بعد معرفة أبوابه ونوافذه المؤدية إليه، ومعرفة الطريقة التي يتم الدخول بها، وكذا المفاتيح التي تفتح بها هذه الأبواب. ومن ثم كان لزاما على من أراد أن يأتي المعرفة من أبوابها أن يتحكم في هذه الأمور أولا، قبل أن يلقي بنفسه في هذه المغامرة الخطيرة؛ لأنه إن تخلف عليه هذا الشرط وجد نفسه في هوتين ليست إحداهما بأضّرّ من صاحبته؛ **أولاهما**: أن يظن الدخول إلى مجال المعرفة وهو - في حقيقة الأمر- خارج عنها لا ينظر إلا من النافذة فلا يرى منها إلا الفكرة والفكرتين والثلاث وذوات العدد، من دون أن يضع هذه الأفكار المتطفل عليها في إطارها الفكري الذي ولدت فيه، والذي لا يمكنها العيش إلا فيه. فيحرّف المفاهيم ويقتل إنتاجه المبني عليها. **أمّا ثانيتهما**: فأن يبقى مدة طويلة يحوم حول المعرفة دون أن يهتدي إلى عنوانها، فيضنيه المسير ويضعفه ويهقه، حتى إذا أدركه الإعياء أساء الظن بتلك المعرفة فرماها بالخلو من الفائدة وجردتها من العلمية، ولم يدر المسكين أنه أوتي من قبل نفسه. من هنا يحق للباحث أن يسأل نفسه قبل البحث هذا السؤال: ما هي الآليات التي بها يمكن الدخول للحقل المعرفي؟، وما هي المفاهيم التي تعدّ مفاتيح للباب المعرفة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية عامّة والمجال اللغوي خاصّة؟ نحاول فيها أن نشير إشارات بسيطة ترسم تصورا عاما يسهل معه للباحث الإجابة عن هذه الأسئلة السابقة.

2- ما قبل المعرفة:

من أهم سمات العصر الذي نعيشه اليوم الانتشار الواسع للمعرفة وقوة مادتها وتراكمها، وهو ما يسميه بعضهم بالانفجار المعرفي، فبعد أن كانت المعرفة في السابق محصورة في نطاق مجموعة معينة من الناس، وبعد أن كانت وسائلها معدودة ومحصورة، فكان "الأب يعلم ابنه مجموعة من المهارات البسيطة التي تعد في الوقت نفسه أساس الحياة مثل: طرق الصيد وأساليب الزراعة وكيفية الدفاع عن النفس وسواها، وكانت الأمّ تعلم ابنتها الأمور الخاصة بواجبات الفتيات في تلك العصور..."¹

صارت اليوم منابعها ووسائل نشرها كثيرة وكثيرة جدا، حتى خرجت إلى حدٍّ أهدت هي نفسها عن المعرفة، وصار المهتمون بهذه المعرفة والمصدرون لها مما لا تحصيهم إلا الهيئات المكلفة بذلك. إن تطور المعرفة "قد اقتفى نسقا فيه من التسارع وفيه من التنوع ما لم يعرفه الانسان من قبل في حياته المديدة"²، بحيث أصبحت هذه المعرفة "تذهل من شدة وقعها الأفكار وتجار الذكريات، لاسيما تلك التي ألفت المراوحة بين كل منعرج فكري وما يعقبه عادة من مهادنة كانت تمتد على بعض المهل، فلا يسابق عمرها عمر الفرد، وقلما يطفح زدها على مكيال الجيل الواحد من المعنيين بالأمر"³.

هذا التطور والزخم والانفجار المعرفي فرض على الإنسان أن يكون أكثر حيطة وحذرا وحرصا من ذي قبل، حتى يتمكن من أن يبني أرضا معرفية صحيحة، يأمن حين الوقوف عليها غائلة السقوط أو الانزلاق إلى مهاوٍ لا يدري عواقبها، وحتى يتمكن في الوقت ذاته من أن يجري حوارا نافعا بينه وبين هذه المعارف، وبين المعارف نفسها، وأن يفتح بابا للمثاقفة لا يأتيه منها أي ضرر. فقد يُدخل المرء رأسه في هذه المعارف استجابة لأهواء غير مؤسسة على أمور عقلانية، أو استجابة لضغوط جرت من غير شعور منه إلى هذه المعارف لتسير به حيث شاءت أن تسير به.

فقد بات محتما على الباحثين والدارسين أن يرسموا لأنفسهم ولغيرهم سبيلا نافعة ومفيدة، وأن يسطروا رؤية واضحة المعالم، تمكنهم من الولوج في هذا البحر المتلاطم من المعارف وهم يحسنون السباحة فيه، ووجب عليهم أن يحددوا -وبدقة- الآليات التي تسمح لهم -في هذا الوسط المعرفي- قيادته نحو الاستفادة والاستفادة، لا أن يتركوا القيادة له فيقذفهم مرة ذات اليمين ومرة ذات الشمال، لا يأخذون منه إلا نزرا قليلا، وحملا ثقيلًا، وربما قذفهم إلى خارجه وهم لا يشعرون.

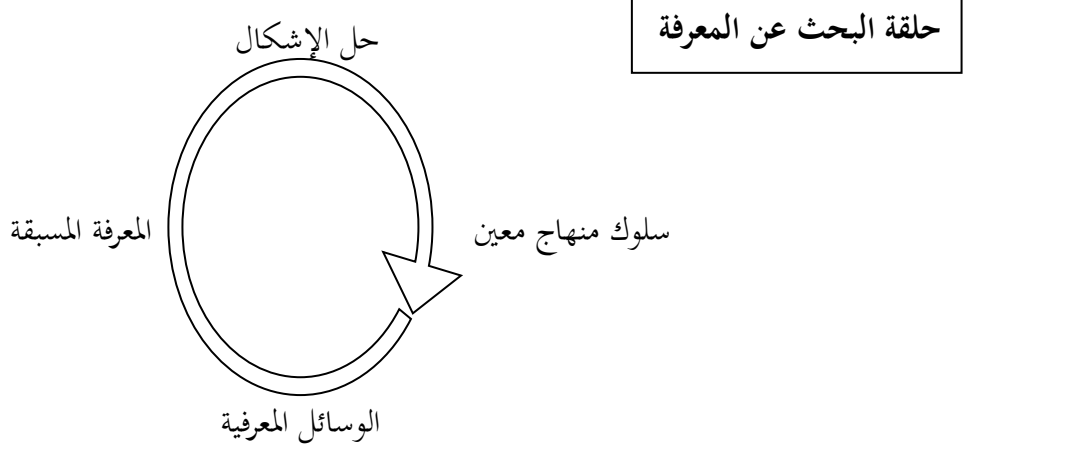
إيمانا مني بالأهمية القصوى للعبة الأولى من المعرفة ارتأيت الحديث عن بعض الشروط والآليات التي يجب على الباحث والمتعلم أن يتصورها قبل ولوجه إلى عالم المعرفة. وأن يتصور ما يحتاجه منها ليكون على بينةٍ من أمره.

3- حلقة بناء المعرفة وعناصرها:

ما قبل المعرفة اللغوية - قراءة في الشروط والآليات - اليزيد بلعمش

إنّ آلية المعرفة والبحث عند الإنسان تتلخص في أبسط صورها؛ في طريق يسلكه الفرد متوسلاً في ذلك ببعض المؤهلات التي منحها الله إياها، وهي في ذاتها مؤهّلة طبيعياً للتنمية والتطوير من خلال ما يتلقاه المرء من مبادئ أولية تؤسسه، ويتكئ عليها ليقصد إلى ما أراد الوصول إليه أو إلى فك ما قد عرض له من إشكال، ليصبح هذا الإشكال بعد الكشف معرفة أولية لمعرفة أخرى جديدة، وهكذا....

إن التحليل التجزيئي لهذه الصورة المبسطة من الحركة المعرفية والبحثية يكشف لنا بوضوح تام أنّها مركبة من أربعة مراحل أو أجزاء متلاحمة فيما بينها ومترابطة، كل واحدة منها تأخذ وتعطي، تأخذ من غيرها وتعطي لغيرها. فهي كحلقة دائرية مغلقة، كل حلقة منها تسلم إلى أختها على النحو التالي:



كل مرحلة من هذه المراحل أو جزء من هذه الأجزاء، هو في حقيقته شرط من شروط الحصول على المعرفة، فلا بد لمن أراد الوجهة الصحيحة للمعرفة، ومن أراد الدخول إلى حقلها أن تكون له وسائل هذه المراحل الأربعة وآلياتها، وهي:

- 1- منهج أو منهجية: لسلوك طريقها لا بد من منهج أو منهجية واضحة.
- 2- الوسائل المعرفية: أبرزها العقل والحس.
- 3- المعرفة المؤسّسة.

مجلة الآداب، المجلد 18، العدد 1، ديسمبر، 2018

4- غاية ومقصد: يهدف إليه الباحث.

وأي باحث امتلك هذه الشروط الأولية للبحث، وعرف آليات استخدامها، فإنه يكون مؤهلاً - في نظرنا - للبحث المنتج والفعال، لأنه لا يخطئ طريق المعرفة والتحصيل والإبداع.

4- آليات تحصيل المعرفة:

إذن فللبحث وللمعرفة شروط أولية إذا تمكن منها الطالب أو الباحث كان سائراً في الطريق الصحيح للمعرفة، وبذلك يتمكن من تحصيلها وملازمة إشكالاتها، أما إن ابتعد عن هذه الشروط والآليات فإنه حتماً سيكون بعيداً عن المعرفة بحسب بعده عن هذه الآليات، ولقد اتضح لنا من خلال ما تقدم قبل قليل في بيان الطريقة التي يتم بها بناء المعرفة أنّ هذه الآليات تتمثل في أربعة أشياء، هي:

4-1- المنهج أو المنهجية:

اهتم الإنسان منذ القديم بتحديد منهجه في السعي إلى اكتشاف المعرفة وطلبها، فالإغريق مثلاً حاولوا وضع منهج شامل ومتناسق الجهات، قسموا فيه العلوم إلى ما عرف عندهم بالفنون السبعة الحرة، والتي وزعوها على مجموعتين اثنتين؛ الأولى مجموعة الثلاثيات: وتضم النحو والمنطق والبلاغة، وتستخدم في الأمور الدينية والسياسية العامة، وفي تشكيل عقل التلميذ وروحه، والمجموعة الثانية: هي الرباعيات: وهي الرياضيات والهندسة والفلك الموسيقى، وتستخدم في مجالات أخرى، كالاقتصاد وغيرها⁴.

كما نجد هذا الاهتمام عند أمم أخرى حاصلًا ومستمرًا إلى أن جاء عصر النهضة أين تبلور الاهتمام به بصفة مستقلة بعد أن كان يتناول ضمن العلوم الأخرى؛ كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة ... وغيرها، ووضع له فرع خاص به سمي بـ: علم المناهج (Methdolge)، ويهتم بالمنهج من منظور معرفي وابستمولوجي⁵؛ من خلال بيان أهمية المنهج في البحث وآليات تفعيله. وكانت بداية الاهتمام به مستقلاً مع ديكرت الذي ألف فيه كتاباً سماه "مقال في المنهج"، قال فيه

مبيناً أهمية المنهج: "خير للإنسان أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير منهج"⁶.

ويرجع هذا الاهتمام بالمناهج من قبل طالب المعرفة "أساساً للدور المنطقي والابستمولوجي الذي تؤديه في البحث العلمي"⁷، والذي يتمثل في "الدراسة المنطقية والمنظمة للمبادئ التي توجه الاستقصاء العلمي، أو تهتم في المحل الأول بإجراءات البحث وأدواته من حيث قدرتها على مدنا بالنوع من المعرفة"⁸، تتأكد هذه الأهمية إذا علمنا أن "الصحة والمنهج مترابطان، فإن لم يكن المسعى منهجياً، فإن النجاح سيكون سطحياً أو ظاهرياً"⁹.

وإذا تقرر هذا، وجب علينا أن نعرف أن أي معرفة للإنسانية لها منطق يحكمها وتصور خاص بها تصاغ وفقه، وهذا بدوره يحدد لنا التصور الذي نقابلها به في طريقة التعامل معها، ومن هنا فإن معرفة الباحث بالمنهجية أو المنهج ينبغي لها أن تسير في ثلاثة أطر، أو يجب أن تهتم بثلاثة جوانب مكملة لبعضها البعض هي:

أ- **منهج المعرفة المدروسة:** إن أي معرفة إنسانية كانت أو غير إنسانية لها منطق يحكمها، ويجعل عناصرها ومكوناتها تشغل حقلاً معرفياً متماسكاً يعطيه تميزه وتفرد، فالظاهرة الأدبية غير الظاهرة الفيزيائية، وهما جميعاً غير الظاهرة النفسية أو الظاهرة الرياضية، وهكذا الفرق بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية، وإن اشتركوا جميعاً في كونهم معرفة. فالظاهرة الاجتماعية تصدق في قطاع محدود من الزمان والمكان، على حين الظاهرة الطبيعية تصدق في كل زمان ومكان، ولا تختلف باختلاف الأشخاص، وبينما تمثل الظواهر الاجتماعية الكائن الحي المنفعل (الإنسان باعتباره موضوعها الأول كفرد أو جماعة). فإن الظواهر الطبيعية تمثل ما هو جامد (غير منفعل)¹⁰. ولهذا نجد أن المفاهيم تختلف بين هذين العلمين، فالموضوعية مثلاً التي نألفها في العلوم الاجتماعية تختلف عن الموضوعية التي تتمتع بها العلوم الطبيعية، فنسبة الحياد وتحقيق الموضوعية في العلوم الطبيعية عالية، ولا يمكن مقارنتها بالعلوم الاجتماعية، ولذا فإنه مهما ادعى الباحث الاجتماعي من موضوعية في دراسته لظواهر علمه، فإن هذه الموضوعية تظل ذات طابع فردي، ولا يمكن أن

ترقى إلى درجة موضوعية العلوم الطبيعية¹¹، وهذا المنهج لا يكتسبه الإنسان ولا يمكنه التعرف عليه إلا من خلال الشرط الثالث من شروط المعرفة، وسيأتي ذكره لاحقاً.

ب- منهج الدراسة: أن يعلم الباحث قبل عملية البحث أن مجموع المعارف المنتشرة بين الناس لا تقبل أي مغامرة علمية، أو أي تعامل من أجل تحصيلها، بل لكل معرفة منهجها الذي يليق بها، وهو مفتاح باهما، وسبيل إلى منازلها. ولهذا فُتِّم علم المناهج قسمين اثنين: قسم عُرف بعلم المناهج العام "وهذا الفرع يبحث في خطوات البحث العلمي مثل الملاحظة وشروطها وأنواعها والفروض وتحقيقتها والتنبؤ والنظرية والقانون .."¹²، وقسم عُرف بعلم المناهج التطبيقي أو علم المناهج الخاص "ويقرر هذا القسم أنّ لكل علم من العلوم منهج بحث خاص به يلائم طبيعة المادة المدروسة، ويتفق مع الظاهرة التي يقوم العالم بفحصها،... فإذا كنّا مثلاً في مجال الحديث عن التاريخ كان المنهج الذي نستخدمه هو المنهج التاريخي الذي يقوم على التحليل الداخلي والتحليل الخارجي ونقد الوثيقة وعصرها،... وبعض العلوم الاجتماعية الأخرى تستخدم مناهج أخرى...."¹³. ولما كانت هذه العلوم -العلوم الإنسانية والاجتماعية- ظواهرها من أشد الظواهر غير القارة والمختلفة حسب الزمان والمكان والأشخاص كانت من أشد المعارف حاجة للمنهج.

ج- منهج المنهج: وهذه هي أهم مرحلة في دراسة المنهجية، ونعني بها تلك العملية التي يتم فيها إحام المنهج بالمادة المعرفية، لأنه لا يكفي في عملية البحث معرفة منهج المادة المدروسة ومنهج الدراسة، أو معرفة الأدوات الإجرائية التي تتم بها دراسة موضوع البحث، بل لابد من تفعيلها مع مادته للإنتاج والإبداع، وهذه العملية هي التي فعلاً تدل على أن الباحث له وعي منهجي فاعل ومنتج، وتفكير منهجي هادف، وتدل أيضاً على "فهم العلاقة بين المنهج والتفكير المنهجي وبين المنهج العلمي والروح العلمية*، وكذا بين المنهج النقدي والنقد المنهجي"¹⁴. إذ إنّ مشكلة البحث اليوم في مجال العلوم الإنسانية خاصة في العالم العربي عامة هي: أننا لا نمتلك هذا التفكير المنهجي، بل ونعاني من عجز منهجي، ناشئ من عدم عقلنة المنهج المستعمل في البحث على أسس معرفية واضحة، وعلى مبادئ علمية صحيحة وعلى ضوابط معرفية موضوعية، فجوهر المشكلة في توظيف

المناهج لا ترتبط بالسؤال عن متونها من حيث أصولها وخطواتها ومفاهيمها وما يكتنفها من غموض وتعقيد وتداخل في المصطلح والجهاز المفاهيمي، وإن كان هذا يأتي في درجة ثانية لمعالجة المشكلة، بقدر ما هو مرتبط بعلاقتنا نحن بهذه المناهج وبصيغة تطبيقنا¹⁵، فالذي يظهر أننا لا نملك هذه الأهلية المنهجية الواعية، والدليل على هذا الواقع، إذ أننا نلاحظ "أن تطبيق هذه المناهج ... لا يكاد يحتكم إلى النظام المعرفي الجماعي الذي يوصل بين أنماط التفكير وأساليب البحث المستمر والمتكامل، ولعل تحقيق السيرورة والتكامل أمر لا مندوحة لنا عنه"¹⁶ - كما سيأتي بيانه لاحقاً - في حقل العلوم إذا أردنا لها أن تكون علوماً مؤسسية وتروم غايات وأهداف عظيمة، على عكس ما نجده اليوم، فإننا لا نجد إلا محاولات تتسم في أكثرها بالذاتية والانطوائية والأحادية الضيقة، ولهذا كثرت الاتجاهات والاختلافات، وتباينت الأفهام.

لا يمكن التوصل إلى هذا الوعي المنهجي، إلا إذا توفر للباحث الشرط الثاني من شروط المعرفة، ألا وهو :

4-2- العقل: صحيح أنّ من أهم طرق المعرفة هي: الوحي، والعقل، والحس، والتجربة¹⁷. فالوحي منزّه عن النقص والخطأ، ومبرأ من العيب والشك، فهو أسلم طرق المعرفة وأوضحها وأصحها، وأما السبل الثلاثة الباقية: وهي العقل، والحس، والتجربة، فإنه "وإن كانت المعرفة بالثنتين الأخيرين من هذه الثلاثة، لا تعاني الاضطراب والاختلاف بسبب نزوعها نحو الواقعية والتطبيقية، فإنه يبقى السبيل الأول منها يكتنفه الكثير من الغموض والاختلاف، والكثير من التوجهات المتعددة، بسبب تفاوت الناس فيه في أصل الخلق، وفي كفاءات الأعمال، ورغم هذا الاختلاف الحاصل فيه إلا أنه يبقى هو المحرك الأساسي للأمم في حياتها المعرفية ونشاطاتها العلمية والاستكشافية"¹⁸. واستعمال السبل الأخرى مرهون به، ومتوقف عليه، حتى فهم الوحي مرتبط به، ولهذا نعتبره من أهم سبل المعرفة، "صحيح أن العقل مازال يجهل الكثير، وما زال يعجز عن الكثير، ولكنه أفضل أداة [فيما لم يأت به الوحي طبعاً] نمتلكها لكي نعرف علمنا ونسيطر على مشاكلنا،

وبفضل هذه الأداة حققنا حتى الآن أشياء رائعة، وتغلبننا على مشكلات كنا نتصور في الماضي أنها لا تُحل¹⁹.

ولا نقصد بالعقل هنا؛ العقل العادي الذي يُميّز به الإنسان عن غيره من المخلوقات الأخرى، أو من بني جنسه المجانين، فهؤلاء ليس من سمّتهم وسمّتهم المعرفة أصلاً، وهذا لا يعدو أن يكون عقلاً تمييزياً، ليس أكثر. بل ما نقصده بالعقل هنا هو العقل الذي يعقل نفسه، ويكتشف حدوده في وسطه الذي هو فيه، ويجرر لنفسه في هذا الوسط مساحات إضافية يعرف فيها ما كان يجمله، هذا هو الذي نقصده، إنه العقل العاقل أو الواعي²⁰، فالقضايا العلمية سواء منها الإنسانية أو غيرها لها بدايات تبدأ منها ونهايات تؤول إليها، والعقل العاقل هو الذي يستطيع أن يحدد موقعه من و في هذه القضايا، ليحكم على نفسه بأحد هذين الحكمين:

1- هل يناقش أم لا؟. أن يعرف من خلال تحديده لموقعه، أنّ هذه القضية هل هي من القضايا التي يمكنه مناقشتها أم لا؟، وهل هي من القضايا الداخلة في طوقه أم من القضايا الخارجة عن مقدوره فيتوقف عندها.

2- ماذا يناقش؟. أن يعرف موقعه من القضية التي بمقدوره مناقشتها، ما هو الجزء الذي يدركه منها؟. أهو مدرك لمسائلها الأولى ويبحث عما تؤول إليه، أم أنه مدرك لمآلاتها ويبحث عن أصولها وأولياتها، أم أنه مدرك لأجزاء منها ويريد تصور هيئتها كاملة.

وبعد أن يحدد الباحث مكانه من المعرفة وفي المعرفة بالنسبة إلى عقله، وقبل أن يشرع فيها، عليه أن يعلم أولاً "أن العلم المرتكز على العقل شكل ضروري من أشكال المعرفة"²¹، فلا يمر على شيء إلا بنظر وتدبر وتفكير، ولا يترك جزئية إلا وفحصها فحصى ناقد، وأن يوجب في كل تحركاته "قوامة العقل على كل ما يتحرك به اللسان، وما يحصله المرء من معرفة، ومن الواجب أن يكون العقل بحدته ويقظته وصرامته ونفوذه مهيمنا على كل فكرة يحصلها، ومهيمنا على كل كلمة يجري بها قلمه"²²، فلا يغلب حجم المادة المعرفية على حجم عقله، لأنه "إذا زاد هذا التحصيل المعرفي على

مقدار العقل، ولم تكن للعقل قوامة تامة على كل ما عندنا من العلم أدى ذلك ... إلى أن تكون عقولنا متون معرفة، ولن نستطيع أن ننتفع بهذه المتون، ولا أن نتصرف فيها، لأنها غلبت على العقل²³.

وكل هذا قد نبه عليه القدامى طلباً العلم بألفاظ جد مؤثرة ومحركة للنفوس، يقول الحسن بن الهيثم: "فالناظر في كتاب العلماء إذا استرسل مع طبعه، وجعل غرضه فهم ما ذكره، وغاية ما أوردوه، حصلت الحقائق عنده، وهي المعاني التي قصدوا إليها، والغايات التي أشاروا إليها، .. والواجب على الناظر في كتاب العلوم، إذا كان غرضه معرفة الحقائق أن يجعل نفسه خصماً لكل ما ينظر فيه، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه، ويخصمه في جميع جهاته ونواحيه، ويتهم نفسه أيضاً عند خصامه فلا يتحامل عليه ولا يتسامح فيه"²⁴.

والقصد من تنبيه الباحثين والدراسين على شرطية العقل في التهيؤ للمعرفة وبناءها، هو تحذيرهم من العادات التفكيرية التي تتمظهر بعدة مظاهر؛ كأن تكون في صورة عقول مستعارة من غيرهم، أو كأن تكون عقول مأسورة بآراء معينة، لأن "في العادات التفكيرية خطران على الأقل، الأول أن صاحب الدعاية إذا علم بالعادات التفكيرية لدى السامعين يستطيع استعمالها سلاحاً له [خاصة في مجال العلوم الإنسانية]، والثاني: أن عادات التفكير قد تولد فينا ميلاً إلى إغلاق الذهن دون الآراء الجديدة"²⁵، بل وتحصرننا في جانب ضيق من الرأي ينبذ جميع ما يخالفه. فالخطر الأول يولد لنا عقلاً مستعاراً، والثاني يعطي لنا عقلاً مأسوراً.

وبعد هذا، لا بد أن نقر أن عملية التفكير ذاتها لا تتم إلا في خلال "منظومة مرجعية تتشكل إحدائياتها من محددات هذه المرجعية ومكوناتها"²⁶، ومن هنا وجب أن يتوفر للباحث معرفة أساسية وتكوين أولي يساعده على تشكيل عقله ونمذجة فكره، وهذا هو الشرط الثالث من شروط البحث في المعرفة، ألا وهو:

4-3- المعرفة المؤسسة أو الخبرة المعرفة المسبقة: نعني بهذا الشرط الثالث التنبيه على وجوب الاهتمام بالتكوين العلمي والثقافي للباحث الذي يهيئه لأن يكون باحثاً، فالتأسيس المعرفي

أمر لا غنى عنه، فلا يولد شيء من العدم، بل المعرفة الإنسانية ما هي في حقيقة أمرها إلا عبارة عن تراكمات لوجهات نظر وآراء، فلو أردنا مثلاً تعريف شيء ما، وليكن "الأسلوب" للجاناً مباشرة إلى تعداد مجموعة التعاريف التي ذكرت من قبل، ومحاولة اختبارها وإثرائها، هذه هي التراكمية التي تعني "أن اللاحق لا يلغي السابق تماماً، ويعقى على أثره، مثل مناهج العلوم الطبيعية، بل يشريه ويتكئ عليه وإن اضطر لتغيير نقطة الارتكاز فيه. فأدوات البحث في العلوم الإنسانية لا تتناسخ بل تتكاثر، ويصحح الحديث منها اتجاه حركة القديم، دون أن يوقفها أو يردها على أعقابها، فالجديد فيها ينتقد القديم، ولا ينقضه لأنه دخل في صميم تجربته وكيونته"²⁷.

فهذا التكوين الثقافي والعلمي هام جدا للباحث في العلوم الإنسانية، لأنه يضعه في الجو الثقافي للمعرفة الذي يكون -بدوره- همزة وصل بين الباحث وبين المعرفة موضوع البحث، إذ يوفر له كل شروط الانطلاقة المنشودة، ويفتح له باباً نحو تمييز مواطن الإصابة من مواطن الإساءة، ونقاط القوة من نقاط الضعف، يقول الإمام الغزالي: "لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدل عليه حقاً"²⁸، وقال بعض الفلاسفة: "من تعلم من غير تفكير فهو في حيرة، ومن فكر من غير تعليم فهو في خطر"²⁹، وعلق محمد محمد أبو موسى على هذا الكلام بقوله: "وهذه الخطوة آتية من أن التفكير من غير تعليم هو تفكير العقل الفارغ، والأفئدة الهواء"، وأضاف موضحاً خطورة أولئك الذين قل نصيبهم من التكوين العلمي وحاولوا الممارسة العلمية والبحثية؛ بقوله: "وترى كثيراً من الذين يفكرون في مسائل العلم وينتقدون بعقول لم تحكمها تجارب العلماء ولم تصقلها استخراجاتهم واستنباطاتهم ومن غير أن يكسبوا طبع العلم، ولم تلق عليهم شمائله وأرديته، ترى هؤلاء حين ينقدون ويناقشون يهدمون وهم لا يعلمون، ولو علموا لكفوا، ولو راجعوا لرجعوا"³⁰.

هذا يفتح لنا باب السؤال عن واقعنا نحن: هل الباحث العربي اليوم يتلقى تكويناً كافياً يسمح له ولوج عالم المعرفة؟ ما نوع التكوين الذي يتلقاه؟ هل هذا التكوين مناسب لأن يكون قاعدة يرتكز

عليها الباحث في مستقبله البحثي؟. هذه الانشغالات كانت موضوع مداخلة لي بعنوان "المحتوى الدراسي الجامعي والعقم الفكري دراسة في الواقع الفكري الجامعي المعاصر" في أحد الملتقيات³¹، خلصت منها إلى: إن التكوين المعرفي للطلاب اليوم يعيش في حالة من الخطورة وجب علينا معها دق ناقوس الخطر، ويسير في طريق غير مرضي تماما، وسبب يرجع إلى أنه تم الخلط بين التكوين المعرفي وبين مواكبة التطورات المعرفية الحاصلة في البحوث العلمية، فبدل أن نسير بالطلاب في الطريق الأول سرنا بهم في الطريق الثاني، فكان الذي نراه من التخلف الفكري والبعد عن الإبداع بل الحيرة المخيمة على الفكر. وأصل المشكل في نظري يرجع إلى عدم اهتمامنا بالشرط الرابع من شروط البحث في المعرفة، أو بالأحرى إهمالنا له وعدم النظر إليه بجدة، وهو:

4- رسم الأهداف وتحديد المقاصد: نعني بهذا إخراج العملية المعرفية والعملية البحثية من كونها عبثية يراد منها ترويض العقل أو الذاكرة، إلى مرحلة الجدوية التي تحدوها في مرحلة أولى فهم الظاهرة الإنسانية، وفي مرحلة ثانية -وهي الغاية الكبرى والأسمى من الدراسة الإنسانية- "السعي إلى فهم حركة المجتمع حتى يسهل الوقوف على علاج مشكلاته، وإن غياب الوعي الحقيقي بأبعاد هذه المهمة النبيلة التي يؤديها الباحث الاجتماعي يجب أن تشكل إحدى أولوياته في الدراسة الاجتماعية الميدانية"³²، فليس من غايات البحث نيل الرتب العلمية أو الإتيان بالجديد لا لشيء إلا لأنه جديد. كما أن تحديد الهدف والغاية لا يعني -بوجه ثان- وبأية حال المشاركة في الحركة الفكرية المعاصرة و فقط، بل وقد يكون مع ذلك القصد منها "إقناع الآخر بأننا في مستوى الانتماء لرؤيته وحجم تقنياته"³³.

إن تحديد الأهداف والغايات من الدراسة والبحث يعني في حد ذاته فقه أصل الإشكالية واتضاح صورتها في الذهن، وسلامة وضع استراتيجيات معالجتها، وهذا يسهم بشكل كبير في بعث نفس الباحث إلى مواصلة البحث والسير في طريقة والصبر فيه، وبالتالي ترسيخه في الأذهان وتربيتها عليه. إن تحديد الأهداف والغايات يعني واقعية الطرح وعقلنته، وأنه يسير في طريق مستقيم واضح المعالم وبيّن الأسس، لا يعاني من الفوضوية والتشعب والمغالطة.

فالقضية إذن على مستويين من الخطورة:

أ- مستوى تحديد الأهداف والمقاصد من الدراسة، وهذا كل يتصف به وإن لم يع ذلك.
ب- ومستوى ثان -بالغ الأهمية والخطورة- ويتمثل في: قيمة هذا الهدف الذي نتغياه ونسعى وإلى تحقيقه ومدى توافقه مع حاجياتنا في جوانب الحياة المختلفة، وهو ما نحسب -بالاستثناء الحديث عن بعض الحالات التي رسمت لأنفسها أهداف تخدم الإنسان العربي، فكان لها من الوضوح المنهجي بغض النظر عن النتائج، ما يعكس هذه الحقيقة-، قلت: وهو ما نحسب أنه لا زال في آخر الركب في الوطن العربي، فلو أردنا تقييم مجال من مجالات البحوث الإنسانية، مثل اللسانيات لوجدناها -الكلام ليس لي إنما هو لصاحب مشروع نقدي كبير في تقييم المسارات العلمية للسانيات في الوطن العربي- تعيش في الثقافة العربية الراهنة نوعا من العبث النظري والتردي اللذين يخلفان وضعية التذمر واليأس، النتيجة أننا لم نتمكن من بناء مشروع فكري، والنتيجة أننا أمام لسانيات تراوح نفسها، والنتيجة أننا لا نتوفر على درس لساني عربي قائم الذات واضح المعالم والحدود، والسبب أننا نتخاطب بكل شيء عن لا شيء³⁴. هكذا في باقي العلوم الإنسانية لأنه إذا حصل هذا في اللسانيات ففي غيرها يكون أولى، لأنها نالت من الاهتمام ما نالت. وبعد هذا ألا يحق لنا أن نقوم بمراجعة صريحة وصریحة لأهدافنا وغاياتنا؟ ألا يحق لنا نحن مسلمي العصر أن نسعى في تحقيق الاستقلال الفكري كما حقق أجدادنا الاستقلال الجسدي، أم أنه ليس لدينا حق التفلسف الإبداع؟!، إننا إن لم نتدارك الوقت فقد "تستيقظ الثقافة العربية غدا على كارثة معرفية في شتى العلوم"³⁵. وليس في العلوم الإنسانية فقط.

خاتمة:

في خاتمة هذه الأوراق يمكن لنا أن نشير إلى بعض المحطّات التي حصلها هذا المقال، ومن أبرزها:

1- يتوجب على الباحث الاهتمام بشروط وآليات تحصيل المعرفة اهتمامه بالمعرفة نفسها، بل من المعرفة حسن التوسل إليها، وهذا لا يتحقق إلا إذا ضبط المرء المتعلّم نفسه على أمور

ما قبل المعرفة اللغوية - قراءة في الشروط والآليات - اليزيد بلعمش

مهمة، منها المنهج، الوسائل تحصيل المعرفة، المعارف السابقة المؤسسة، ورسم الأهداف والغايات.

2- المنهج في تحصيل المعرفة منشطر على ثلاث جهات: جهة تتعلق بالمادة المدروسة أخرى تتعلق بنوع الدراسة وثالثة تتعلق بالهئيات التي توظف بها الأدوات المعرفية، وهي جهات متداخلة ومتشابكة، ولهذا نجد أنّ من أعقد المشكلات وأبينها في العصر الحاضر مشكلة المنهج.

3- من أبرز أدوات تحصيل المعرفة العقل، ولا ينفع إلا إذا كان واعيا، وذلك بأن يعرف كيف يحدد موقعه من القضايا المعرفية أخذا وتركاً.

4- المعرفة المسبقة رتبة من رتب المعرفة المطلوبة، لأنها تكسب صاحبها خبرة في مخالطة المعرفة، وتأصيلاً للمسائل المستجدة.

5- من صور فهم إشكالية المعرفة المطلوبة دقة تحديد الأهداف والغاية منها.

فهذه -إذن- بعض الآليات التي يتمكن معها الباحث فتح باب المعرفة فتحة يُسَلَّم إليها.

- الهوامش والإحالات:

- ¹ محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، ط 2003، (ص 83).
- ² عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2004، (ص 8، 9).
- ³ المرجع نفسه (ص 9).
- ⁴ انظر: محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي (صص 83، 84، 85).
- ⁵ انظر: ماهر عبد القادر محمد علي، سلسلة فلسفة العلوم: الجزء 07، الميتودولوجيا (علم المناهج)، دار النهضة العربية-بيروت، ط 1، 1997، (ص 17).
- ⁶ انظر: محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي (ص 86).
- ⁷ ماهر عبد القادر محمد علي، الميتودولوجيا (ص 7).
- ⁸ المرجع نفسه (ص 19).

ما قبل المعرفة اللغوية - قراءة في الشروط والآليات - اليزيد بلعمش

⁹ موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية-تدريبات عملية-، تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصة-الجزائر، ط2، 2006 (ص37).

¹⁰ ماهر عبد القادر محمد علي، الميتودولوجيا (ص25).

¹¹ المرجع نفسه(ص26).

¹² المرجع نفسه (ص21).

¹³ المرجع نفسه (ص22).

* الروح العلمية نعني بما: سلوك يتميز ببعض الاستعدادات الذهنية الأساسية في المنهج العلمي وفي تحليل الظاهرة.

¹⁴ خير الدين دعيش، المناهج النقدية ونظرية المعرفة، مقال ضمن: مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس-سطيف، العدد 07، 2008، (ص251).

¹⁵ انظر: المقال نفسه (ص251).

¹⁶ المقال نفسه (ص259).

¹⁷ انظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي، دار القلم-دمشق، ط4، 1993 (ص126 وما بعدها).

¹⁸ والكلام للباحث من مداخلة قدمها في ندوة "المصطلح اللساني" بجامعة سطيف، وعنوانها: "بين ثنائية المفهوم والمصطلح - مقارنة في المنظومة الاصطلاحية النحوية العربية-".

¹⁹ فؤاد زكريا، التفكير العلمي، عالم المعرفة-بيروت العدد03، 1990 (ص76).

²⁰ يقول محمد عابد الجابري: "المعارف العقلية مصدرها الحس والتجربة، وتعتمد أساسا على الخبرة اليومية الفردية والاجتماعية، فإن كانت فقط عبارة عن تصورات فهي من عمل العقل التمييزي، وهو أدنى مرتبة، وإن كانت تفيد الترتيب بين الحوادث والعلاقات فهي من عمل العقل التحريبي الذي يحتل المرتبة الثانية، وإن كانت قائمة على تصورات وتصديقات تنتظم انتظاما خاصا وتهدف إلى تصور الوجود على ها هو عليه بأجناسه وفصوله وأسبابه وعلله، فهي من إنتاج العقل النظري وهو أعلى مرتبة من مراتب الفكر البشري". اهـ. وهذا مما قاله عند تحليله لأنواع المعارف مراتبها عند ابن خلدون. نحن والتراث -قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي-، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، ط1، 2006، (ص331، 332).

²¹ فؤاد زكريا، التفكير العلمي (ص78).

²² محمد محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، مكتبة وهبة-القاهرة، ط1، 2005 (ص62).

²³ المرجع نفسه (ص67).

²⁴ الحسن بن الهيثم، الشكوك على بطليموس، نقلا عن: ماهر عبد القادر محمد علي، الميتودولوجيا (ص99).

²⁵ روبرت ها. ثاولس، التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، تر: حسن سعيد الكرمني، عالم المعرفة-الكويت، 1990 (ص138).

²⁶ محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، ط2، 1990 (ص58).

²⁷ صلاح فضل، الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق-القاهرة، ط1، 1998، (صص92، 93).

²⁸ أي حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، ت: سعد كريم الفقي، دار بن خلدون-القاهرة، دط، دت (صص14، 15).

مجلة الآداب، المجلد 18، العدد 1، ديسمبر، 2018

²⁹ نقله: محمد محمد أبو موسى, مراجعات في أصول الدرس البلاغي (ص64).

³⁰ مراجعات في أصول الدرس البلاغي(ص64, 65).

³¹ وهو ملتقى "بيداغوجيا التعليم العالي وإعادة البناء الذهني في الجزائر" بجامعة ورقلة 18 أكتوبر2009, وكان مما قلته في الخاتمة البحث ما يلي: "أن المتسبب في الركود الفكري والإبداعي عند الطالب الجامعي عندنا هو تراجع التكوين المعرفي له والبناء الفكري, بل والبناء الفوضوي الذي يتلقاه, والنتائج بدوره من نوعية المادة المعرفية المقدمة له, والتي نشأ عليها فكره في الجامعة, التناول السطحي لمعارف التراث وطغيان المعرفة الغربية غير المؤصلة دفعا إلى هذا النوع من البناء الميت أحيانا والمميت أحيانا أخرى, فكان هذا البناء المهلهل بؤرة لعدة أنواع من الأمراض الفكرية والثقافية التي يعاني المجتمع من ويلاتها".

³² رابع بودبابة, العلوم الإنسانية والاجتماعية والبحث العلمي في الوطن العربي, مقال في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر, العدد07, 2006 (ص243).

³³ إدريس هاني, أنتاج التراث أم فهمه؟ تأملات في منهج قراءة التراث الإسلامي العربي, مجلة الكلمة, الفلاح-بيروت, العدد9, 1995, (ص56).

³⁴ انظر: مصطفى غلفان, اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين, شركة المدارس-المغرب, ط1, 2006(ص4, 5) ومواضع أخرى.

³⁵ المرجع نفسه(ص170).

المصادر والمراجع:

1- إدريس هاني, أنتاج التراث أم فهمه؟ تأملات في منهج قراءة التراث الإسلامي العربي, مجلة الكلمة, الفلاح-بيروت, العدد9, 1995.

2- أبو حامد الغزالي, المنقذ من الضلال, ت: سعد كريم الفقي, دار بن خلدون- القاهرة, دط, دت.

3- خير الدين دعيش, المناهج النقدية ونظرية المعرفة, مقال ضمن: مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية, جامعة فرحات عباس- سطيف, العدد 07, 2008.

4- رابع بودبابة, العلوم الإنسانية والاجتماعية والبحث العلمي في الوطن العربي, مقال في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر, العدد07, 2006.

5- روبرت ها. ثاولس, التفكير المستقيم والتفكير الأعوج, تر: حسن سعيد الكرمي, عالم المعرفة-الكويت, 1990.

6- صلاح فضل, الأسلوب مبادئه وإجراءاته, دار الشروق-القاهرة, ط1, 1998.

7- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي, دار القلم-دمشق, ط4, 1993.

8- عبد السلام المسدي, الأدب وخطاب النقد, دار الكتاب الجديد المتحدة, ط1, 2004.

9- فؤاد زكريا, التفكير العلمي, عالم المعرفة-بيروت العدد03, 1990.

ما قبل المعرفة اللغوية - قراءة في الشروط والآليات - اليزيد بلعمش

- 10- ماهر عبد القادر محمد علي, سلسلة فلسفة العلوم: الجزء 07, الميتودولوجيا (علم المناهج), دار النهضة العربية-بيروت, ط1, 1997.
- 11- محمد عابد الجابري, نحن والتراث -قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي-, مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت, ط1, 2006.
- 12- محمد عابد الجابري, إشكاليات الفكر العربي المعاصر, مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت, ط2, 1990.
- 13- محمد محمد أبو موسى, مراجعات في أصول الدرس البلاغي, مكتبة وهبة-القاهرة, ط1, 2005.
- 14- محمود سليمان ياقوت, منهج البحث اللغوي, دار المعرفة الجامعية, ط2003.
- 15- مصطفى غلفان, اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين, شركة المدارس-المغرب, ط1, 2006.
- 16- مورييس أنجوس, منهجية البحث في العلوم الإنسانية-تدريبات عملية-, تر: بوزيد صحراوي وآخرون, دار القصة-الجزائر, ط2, 2006.